.. قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون

بقلم الدكتور: زغلول النجار

هذه الآية الكريمة جاءت في أواخر النصف الأول من سورة يوسف وهي سورة مكية، وعدد آياتها(١١١) آية بعد البسملة، وقد تفردت باستعراض قصة هذا النبي الصالح بتفاصيلها، والذي جاء ذكره(عليه السلام) في كل من سورتي الأنعام وغافر، وفي مقابلة ذلك جاءت سير غيره من أنبياء الله ورسله إما مجملة في جزء من سورة، أو مفصلة على مراحل في عدد من السور، علما بأن سبعا من سور القرآن الكريم تحمل أسماء غيره من أنبياء الله ورسله من أمثال: نوح، هود، إبراهيم، يونس، طه، يس، محمد(صلى الله وسلم وبارك عليهم أجمعين)، أو أسماء جماعة أو فرد من الصالحين من أمثال آل عمران، مريم، ولقمان(رضي الله تعالي عنهم)، أو بعض صفاتهم من أمثال سورتي الأنبياء والمؤمنون.

ومن الإشارات الكونية في سورة يوسف(عليه السلام) التوصية الإلهية التي ألهمها ربنا(تبارك وتعالى) لعبده يوسف(عليه السلام) بترك القمح المخزون من أعوام الرخاء لأعوام الشدة في سنابله، وقد أثبتت التجارب في خزن المحاصيل الزراعية أنها الطريقة المثلى في حفظ المحاصيل ذات السنابل لمدد طويلة دون فساد أو تسوس أو نقص في محتواها الغذائي.
وقبل الدخول إلى ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالى على لسان عبده ونبيه يوسف عليه السلام:
قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون* (يوسف:٤٧)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذكر الإمام ابن كثير(رحمه الله) ما مختصره: قال(تزرعون سبع سنين دأبا) أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات(فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون): أي مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فادخروه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلا لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا به في السبع الشداد، وهن السبع سنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان، لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئا وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شئ، ولهذا قال:(يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون) ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك(عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) أي يأتيهم الغيث وهو المطر، وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون، على عادتهم من زيت وعنب ونحوه.
ومن قبل ذكر الإمام الطبري(رحمه الله) كما ذكر بقية المفسرين كلاما مشابها مع تفاوت بسيط في شرح دلالة بعض كلمات الآية الكريمة، ولذلك أرى الاكتفاء هنا بكلام الإمام ابن كثير(رحمه الله ورحم جميع المفسرين الذين خدموا القرآن الكريم برحمته الواسعة).

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

يعتبر القمح أهم أغذية الإنسان، وقد عرف في المشرق العربي قبل بدء التاريخ، ثم انتشر إلى أواسط آسيا، ومن بعد ذلك إلى بقية أجزاء العالم، وكان قدماء المصريين من أوائل الشعوب التي زرعت القمح، وإن كان تاريخ زراعته يرجع إلى العصر الحجري إن لم يكن قبل ذلك.
والقمح يتبع العائلة النجيلية(FamilyGramineae) نسبة إلى نبات النجيل، وتضم هذه العائلة بالإضافة إلى القمح عددا من المحاصيل الأخرى مثل الشعير، الذرة، الشوفان الراي أو الجاردار(Rye) والأرز، السرجوم (Sorghum)، كما تشمل نباتات اقتصادية أخرى مثل قصب السكر، والغاب والنجيل وغير ذلك من حشائش المراعي، والأعشاب الطبية، وتشمل عائلة النجيليات حوالي ٤٥٠ جنسا، وسبعة آلاف نوع من أنواع النباتات التي تنتشر على سطح الأرض لتغطي مساحات هائلة تفوق المساحات التي تغطيها أفراد أية عائلة نباتية أخرى، وتمثل العائلة النجيلية بأعشاب حولية أو معمرة، وإن كان بعضها يمثل بنباتات خشبية قد يصل طول الواحدة منها إلى اكثر من ثلاثين مترا كما هو الحال في نباتات الخيزران الهندي.

وأزهار النجيليات عادة ما تكون بسيطة التركيب صغيرة الحجم، خضراء ويتم تلقيحها بواسطة الرياح.
والقمح هو أهم أجناس العائلة النجيلية على الإطلاق، ويعرف منه في مصر ثلاثة أنواع رئيسية على الأقل تعرف بالأسماء التالية:

(١) القمح شديد الاحتمال(الدكر)(Triticumdurum) أو(Emmer) وهذا النوع من القمح يزرع في جنوب صعيد مصر، وفي واحات الصحراء الغربية، وفي شبه جزيرة سيناء.
(٢) القمح البلدي(الهرمي)Triticumpyramidale ويزرع في شمال صعيد مصر وفي الفيوم.
(٣) القمح الهنديTriticumVulgare ويزرع في الوجه البحري.

وتتميز نباتات العائلة النجيلية بالجذور الليفية التي يحمل الكثير منها ريزومات عقدية وتتكاثر أغلبها بالأشطاء وهي براعم تنمو عند المنطقة الفاصلة بين الجذر والساق(فوق التربة) كما هو الحال في نبات القمح، الذي تتكون جذوره من مجموع أساسي خارج من البذرة النابتة، ومجموع عرضي يخرج من البراعم الجانبية، وكذلك الساق يتميز إلى ساق أساسي(يمثل نمو السويقة المنبثقة من داخل البذرة النابتة) وسيقان عرضية على هيئة أفرع قاعدية تخرج من البراعم الإبطية الموجودة عند العقد القاعدية، المزدوجة، النامية على قاعدة الساق الأساسية عند منطقة الاتصال بين الجذر والساق فوق سطح الأرض(التربة) مباشرة، وبذلك ينبت من الحبة الواحدة مجموعة من الأفرع أو السيقان المحيطة بالساق الرئيسي تعرف باسم الأشطاء(مفردها شطء) ويتراوح عددها بين العشرين والثلاثين وقد يصل إلى الخمسين، وعلى ذلك فإن نبتة القمح الواحدة توجد في حزمة مركبة من الأشطاء النامية حول الساق الأساسي وكلها متصلة ببعضها البعض في مجموعة من الجذور الليفية مما يوضح خروجها من أصل واحد، أي من بادرة واحدة خارجة من بذرة واحدة، فالحبة النابتة تخرج منها البادرة، والبادرة تعطي الأشطاء في منطقة الاتصال بين الجذر والساق فوق التربة مباشرة، ولا تلبث تلك أن تنمو حتى تصل إلى طول الساق الأصلية تقريبا وتعطي سنابل مثلها، بحيث يكون لكل شطء سنبلة خاصة به، وبذلك تنبت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحبة الواحدة نباتات تحمل عدة سنابل، وأوراق شجيرة القمح متبادلة على ساقها، وكل واحدة منها تحمل زوجا من الأذينات عند قاعدة النصل، وللساق غمد يحيط به، ونورة نبات القمح تتكون من حشد من الأزهار التي تتجمع على جزء من الساق، وبذلك تتركب النورة من جزء من الساق يسمى محور النورة، وعدد من الأزهار التي تخرج من آباط أوراق صغيرة تسمى القنابات(العصيفات أو العصافات مفردها عصيفة)، وفي بعض الأحيان تظهر الأزهار دون قنابات.

ونورة نبات القمح نورة مركبة يستطيل فيها المحور وتترتب عليه الأزهار الجالسة التي بعد إخصابها تعطي الثمرة وهي بذور القمح، وعند تمام الإخصاب تتحول نورة القمح إلى سنبلة خضراء ثم بعد تمام نضجها تتحول إلى سنبلة صفراء ذهبية.
وسنبلة القمح سنبلة مركبة، يحمل فيها المحور سنابل أصغر تعرف باسم السنيبلات، وهي جانبية الترتيب في تبادل على صفين متقابلين، وينتهي المحور عادة بسنبلة طرفية.

وتحمل السنبلة في المتوسط(١٥ ـ ٢٠) سنيبلة، ويتفاوت عدد الأزهار في السنيبلة الواحدة بين(٢ ـ ٩) ويكون في السنيبلة الواحدة حبتان إلى ثلاث حبات من القمح. ولبعض سلالات القمح شوكة طرفية دقيقة جدا تعرف باسم (السفا أو الحسكة). ونبات الشعير يشبه نبات القمح في شكله وفي العديد من صفاته، والشعير من أقدم محاصيل الحبوب التي عرفها الإنسان وقام على زراعتها، وكان يعتبر المصدر الرئيسي لدقيق الخبز حتى حل القمح محله في ذلك. ولكل من حبتي القمح والشعير غلاف رقيق ولكنه صلب، يلتصق بالحبة بشدة بالغة، ويعتبر حماية لها من الرطوبة، والتغيرات المناخية، ومن مختلف أنواع الكائنات الحية الضارة، والملوثات الكيميائية، ويعرف باسم الغلاف المحيط(Pericarp)، وهو ينفصل عن حبة القمح(البرة) على هيئة النخالة عند الطحن، وتؤلف النخالة حوالي٨،٥% من وزن حبة القمح وهي ثمرة جافة، صغيرة، التحم جدارها بغلاف البذرة التحاما كاملا.
وجنين بذرة القمح صغير جدا ويتكون من مركبات كيميائية ذات قيمة غذائية عالية من مثل البروتينات والفيتامينات والدهون ويشكل ذلك حوالي٢% ـ٣،٥% من وزن حبة القمح وعادة ما تستبعد الدهون من الدقيق عند طحنه لأنها تتحلل وتفسد مع التخزين لمدد طويلة، ويحاط الجنين بمخزون غذائي على هيئة طبقة بروتينية غنية بمادة الجلوتين(Gluten) وبمركبات الفوسفور والنشا، وجزيئات الجلوتين خيطية الشكل ومتشابكة مع بعضها البعض، ومن فوائدها أنها تجعل العجين لينا سهل التشكيل، وقابلا للتخمر بإضافة الخميرة إليه، ويمثل المخزون الغذائي في حبة القمح حوالي٨٧% إلي٨٨% من كتلتها.

وحبة القمح تغلفها قنابة تسمى العصافة(Glume) هي التي تكون قشر الحنطة. والحبوب في كل من السنيبلات والسنابل محاطة بأغلفة واقية وأشواك وشعيرات تحميها من الفطريات والبكتريا والجراثيم، والحشرات والرطوبة، ومن تقلبات الطقس وتيارات الهواء الجوي المباشر المحمل بالملوثات، وهذه الأغلفة بالرغم من صلابتها، وشدة إحكامها فإنها تسمح للجنين الكامن في داخل البذرة " وهو في حالة من الركود الحيوي و السكون " بقدر من التهوية غير المباشرة والمستمرة، وتحول دون ارتفاع نسبة الرطوبة للحيلولة دون إنبات الجنين في أوقات التخزين، كذلك فإن البذرة الجافة وأغلفتها تحتوي على آثار طفيفة من مركبات كيميائية حافظة للبذرة، ومثبطة لعملية إنباتها تحت الظروف الجافة، وعلى مركبات أخرى مضادة لكل من البكتريا، والفطريات والجراثيم المحتمل وصولها إلى الحبوب أثناء تخزينها.
انطلاقا من ذلك كله جاءت الآية الكريمة التي نحن بصددها إلهاما من الله(سبحانه وتعالى) لنبيه يوسف(عليه السلام) لكي ينصح بخزن المحاصيل الزراعية كالقمح والشعير، والأرز، والشوفان في سنابلها، وقد أثبتت التجربة أنه أفضل نظام لحفظ تلك المحاصيل طالت مدد ذلك الحفظ أم قصرت، وقد طبقها يوسف(عليه السلام) لمدة وصلت إلى خمس عشرة سنة دون أن تفسد وبقيت طوال هذه المدة محافظة على قيمتها الغذائية كاملة، وعلى حيويتها، وقدرتها على الإنبات والنمو والإثمار.

ولقد قام الأستاذ الدكتور عبد المجيد بلعابد(من جامعة وجدة بالمغرب العربي) بتجربة عملية للتأكد من ذلك فترك بذور القمح في سنابلها لمدة عامين تحت ظروف عادية لم يراع فيها أية شروط من شروط تخزين الحبوب، وجرد بعض البذور من سنابلها وتركها أيضا تحت نفس الظروف ولنفس المدة الزمنية، فلاحظ أن الحبوب في السنابل لم يطرأ عليها أي تغيير لا في محتواها من المواد الغذائية ولا في قدرتها على الإنبات سوى فقدها لجزء من محتواها المائي مما جعلها أكثر جفافا وأصلح للحفظ وللإنبات لأن وجود الماء يسهل من تعفن القمح، خاصة أن نسبة الماء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في بذوره تصل إلى٣، ٢٠%.
في نفس الوقت لاحظ الباحث أن حبوب القمح التي جردت من سنابلها فقدت ٢٠% من محتواها من المواد البروتينية بعد سنة من خزنها، وفقدت ٣٢% من هذا المحتوى بعد سنتين، وكذلك فقدت نسبة كبيرة من قدرتها على الإنبات والنمو والإثمار.

وبذلك ثبت بالتجربة أن افضل طريقة لتخزين المحاصيل النباتية التي تنتج في سنابل كالقمح والشعير والأرز هو حفظها في سنابلها التي خلقها الله(تعالى) فيها.
وهذا هو من الوحي الذي أوحاه الله(تعالى) إلى نبيه يوسف(عليه السلام)، وذكره مع قصته كاملة في القرآن الكريم مما يشهد لهذا الكتاب الخالد أنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الخالق العليم الحكيم (سبحانه وتعالى) ويشهد لكل من يوسف بن يعقوب(عليه السلام) ولخاتم الأنبياء والمرسلين(صلى الله عليه وسلم) بالنبوة وبالرسالة، لأن المصريين القدماء ما كانوا يعرفون طريقة لحفظ الغلال وخزنها إلا معزولة عن سنابلها، والأمر الإلهي بحفظها في سنابلها لم يدرك إلا بعد مشورة هذا النبي سليل بيت النبوة(على نبينا وعليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأزكى التسليم)، ولا يزال القمح يخزن في أيامنا هذه مفروطا من سنابله مما يعرضه لفساد كبير عند خزنه على الرغم من الاحتياطات الكثيرة التي تتخذ في صوامع ومخازن الغلال.

وإذا أضفنا إلى ذلك مقارنة قصة يوسف(عليه السلام) كما أنزلت في القرآن الكريم على نبي أمي(صلى الله عليه وسلم) وسط أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، مع ما ورد عنها في سفر التكوين، اتضحت لنا وحدة رسالة السماء، والأخوة بين الأنبياء، وفضل الإسلام العظيم على الناس أجمعين، وفضل القرآن الكريم على غيره من الكتب، لأن القصة في سفر التكوين مع تشابهها مع ما جاء في القرآن الكريم قد عابها كثير من النقص البشري، والتحريف عندما رويت شفاهة ودونت بعد ضياع مصادرها الأصلية بقرون متطاولة. وهنا يتضح فضل العهد الإلهي الذي قطعه ربنا(تبارك وتعالى) على ذاته العلية بحفظه للقرآن الكريم من لحظة نزوله وإلى قيام الساعة فقال(عز من قائل):
إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون* (الحجر:٩)

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله أولا وأخرا، وصلى الله وسلم وبارك على كافة أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ونسأل الله تعالى أن يخص خاتم الأنبياء والمرسلين وآل بيته الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن والاهم وسار على دربهم إلى يوم الدين بأفضل الصلاة وأزكى التسليم وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com